وقفات مع آية
من كتاب الله العظيم

لأبي مالك

محمد بن قاسم غزال الضُّميري

- رحمه الله تعالى وغفر له ولوالديه -

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية البحث

عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إنّمَا الأَعْمَالُ بالنِّيّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امرئ مَا نَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصيبُهَا ، أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكَحُهَا ، فَهِجْرَتُهُ إلى مَا هَاجَرَ إِلَيْه)[1].

١ – رواه البخاري ج٣/١ رقم ١ ، كتاب بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ، ومسلم ج٤٨/٦ رقم ٥٠٣٦ ، باب قوله ﷺ : (إنما الأعمال بالنية) وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال .

قال الإمام النووي رحمه الله في كتابه المجموع : وإنما بدأت بهذا الحديث تأسياً بأئمتنا ومتقدمي أسلافنا من العلماء رضي الله عنهم وقد ابتدأ به إمام أهل الحديث بلا مدافعة أبو عبد الله البخاري صحيحه ، ونقل جماعة أن السلف كانوا يستحبُّون افتتاح الكتب بهذا الحديث ؛ تنبيهاً للطالب على تصحيح النية وإرادته وجه الله بجميع أعماله البارزة والخفية ، وروينا عن الإمام أبي سعيد عبد الرحمن بن مهدي رحمه الله قال : لو صنفتُ كتاباً بدأتُ في أول كل باب منه بهذا الحديث ، وروينا عنه أيضاً قال : من أراد أن يصنف كتاباً فليبدأ بهذا الحديث، وقال الإمام أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب الخطابي الشافعي الإمام في كتابه المعالم رحمه الله تعالى : كان المتقدمون من شيوخنا يستحبون تقديم حديث : (الأعمال بالنيات) أمام كل شيء يُنشأ ويُبتدأ من أمور الدين ؛ لعموم الحاجة إليه في جميع أنواعها . انظر المجموع ج١٦/١، فصل في الإخلاص والصدق وإحضار النية في جميع الأعمال البارزة والخفية .

قلت : والنظر في كتاب الله تلاوة وتدبراً من أفضل الأعمال ، ويجب له النية الخالصة لله وحده لا شريك له .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضلّ له، ومن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾[3].

أما بعد : فإن النظر في كتاب الله تعالى تلاوة وتدبراً من أفضل الأعمال وأجل القربات إلى الله تعالى ، قال تعالى ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[4]

١- ال عمران الآية ١٠٢

٢- النساء الآية ١

٣- الأحزاب الآية ٧٠-٧١

٤- ص الآية ٢٩.

وسنقف في هذا الكتاب وقفات مع آية عظيمة من كتاب الله عسى الله أن ينفعنا جميعا

والآية التي ستكون محل التدبر هي قول تعالى : ﴿**يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظ شِدَاد لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ**﴾[1] .

لا يخفى أن العمل بالشيء فرع عن العلم به ، ولعل هذه النظرات أو الوقفات القصيرة مع هذه الآية الكريمة ، تكون حافزاً وحادياً للعمل بها ، حتى يحافظ الرجل المؤمن على نفسه من الضياع وسط أمواج الفتن والمغريات ، ثم يحافظ بعد ذلك على أهله وفلذات أكباده ومن هم تحت ولايته ... .

وإذا كان العمل بهذه الآية الكريمة واجباً في عموم أحوال الرجل المؤمن ، فإن العمل بها يكون أشد وجوباً عندما تكثر الفتن وتكبر ويرقق بعضها بعضاً ، وعندما يرى المؤمن شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، وعندما يكون المؤمن في حثالة من الناس ، قد مرجت عهودهم ، وخفت أماناتهم ، وخربت مواثيقهم ، واختلفت قلوبهم وأهواءهم ، ويصير أهل الإسلام شيعاً ، ويذيق بعضهم بأس بعض ... عند هذه الأحوال فامرؤ ونفسه ، وليدع عنه أمر العامة ، وليقبل على خاصته وأهله ، وليتق الله في نفسه وأهله ومن هم تحت ولايته .

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ ، قال : قال لي رسول الله ﷺ : كيف أنت إذا بقيت في حثالة من الناس؟ قال : قلت : يا رسول الله كيف ذلك ؟ قال : إذا مرجت[2] عهودهم ، وأماناتهم ،

١ـ التحريم الآية ٦

٢ – مرجت : اختلطت وفسدت .

وكانوا هكذا ، وشبك يونس بين أصابعه ، يصف ذاك ، قال : قلت : ما أصنع عند ذاك يا رسول الله ؟ قال : اتق الله عز وجل ، وخذ ما تعرف ، ودع ما تنكر ، **وعليك بخاصتك ، وإياك وعوامهم**)[1].

وفي رواية : عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال : بينما نحن حول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ ذكروا الفتنة أو ذكرت عنده قال : (إذا رأيت الناس قد مرجت عهودهم ، وخفت أماناتهم ، وكانوا هكذا، وشبك بين أصابعه ، قال : فقمت إليه ، فقلت له : كيف أفعل عند ذلك جعلني الله فداك ؟ قال : الزم بيتك ، وأملك عليك لسانك ، وخذ ما تعرف ودع ما تنكر ، **وعليك بأمر خاصة نفسك ، ودع عنك أمر العامة**)[2].

قلت : هذا أسلوب تربوي فريد في إعادة بناء الأمة من جديد عندما يؤول حالها إلى حال معينة ، فنبينا الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم يأمر عبد الله بن عمرو ﷺ أنه إذا بقي في حثالة من الناس أن يقبل على خاصة نفسه ، وأن يدع عنه أمر العامة .

---

١ – رواه الإمام أحمد في المسند ج١٦٢/٢ رقم ٦٥٠٨ ، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط : صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين . وابن حبان ج٢٨١/١٣ رقم ٥٩٥١ . والطبراني في الأوسط ج١٥٦/٣ رقم ٢٧٧٦. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ج٢٢٥/٧ رقم ١٢٢٢٢: رواه الطبراني في الأوسط بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح . وفي رواية : (واختلفوا فصاروا هكذا وشبك بين أصابعه) انظر السلسلة الصحيحة للألباني ج٢٠٥/١ رقم ٢٠٦ .

٢ – رواه الإمام أحمد في المسند ج٢١٢/٢ رقم ٦٩٨٧ ، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح رجاله رجال الصحيح غير هلال بن خباب فقد روى له أصحاب السنن . ورواه الحاكم في المستدرك ج٤/٢٠ رقم ٨٧٤٦ ، وقال : حديث صحيح الإسناد . وأبو داود ج٥٢٧/٢ رقم ٤٣٤٣ . والنسائي في السنن الكبرى ج٥٩/٦ رقم ١٠٠٣٣ . وانظر السلسلة الصحيحة للألباني ج٢٠٤/١ رقم ٢٠٥ .

ومثله كل مؤمن إذا أقبل على نفسه فاتقى الله فيها ، وأقبل على خاصته فاتقى الله فيها ، قام بنيان الأمة من جديد بإذن الله ؛ وذلك لأن في صلاح الأسرة صلاح الأمة بأسرها ، وهل الأمة إلا الأسرة المتكررة ، قال تعالى : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا)[1] فمن الذكر والأنثى وهما قوام الأسرة كانت الشعوب والأمم ، ومن أسرتي وأسرتك وأسرة الثالث ... الخ تتكون الأمة.

ومثال ذلك : أن يكون أناس في قاعة كبيرة التزموا نظاماً معيناً في التعامل فيما بينهم أثناء وجودهم في هذه القاعة ، ولأمر ما فقد عمت الفوضى فيما بينهم وتعالت أصواتهم وكثر الهرج والمرج في كل جانب ، فما هو السبيل الأمثل لهدوء القاعة والرجوع بها إلى ما كانت عليه من الالتزام بالنظام الذي ارتضوه . لا شك أن السبيل لذلك هو أن يلزم الرجل نفسه بالهدوء والصمت قبل غيره ، وأي سبيل خلاف ذلك إنما هو ضياع للأوقات دون فائدة .

وعن أبي أمية الشعباني قال : أتيت أبا ثعلبة الخشني ، فقلت له : كيف تصنع بهذه الآية ؟ قال : أية آية ؟ قلت : قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) قال : أما والله ، لقد سألت عنها خبيرا ، سألت عنها رسول الله ﷺ ، فقال : بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحا مطاعا ، وهوى متبعا ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، **فعليك بخاصة نفسك ، ودع العوام** ، فإن من ورائكم أياما الصبر فيهن مثل القبض على الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم) قال عبد الله بن

---

١ – الحجرات الآية ١٣ ،

المبارك : وزادني غير عتبة (قيل : يا رسول الله أجر خمسين منا أو منهم ؟ قال: بل أجر خمسين منكم)[1].

وعن ابن عمر ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إذا تبايعتم بالعينة ، وأخذتم أذناب البقر ، ورضيتم بالزرع ، وتركتك الجهاد ، سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم)[2]

وفي هذا الحديث العظيم بيان للأمراض أو للأسباب والمقدمات (إذا تبايعتم بالعينة ، وأخذتم أذناب البقر ، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد) وكل هذا موجود بين المسلمين اليوم .

فيه بيان للنتائج والعواقب (سلط الله عليكم ذلاً) وهذا أيضاً موجود .

وفيه بيان للدواء والعلاج (لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم) نسأل الله تعالى أن يردنا إلى دينه رداً جميلاً ورداً حميداً ، وأن يعزنا بطاعته وبالرجوع إلى دينه ، فنحن قوم أعزنا الله بالإسلام فمهما ابتغينا العزة بغير الإسلام أذلنا الله .

ولو أن أهل الإسلام عملوا بهذه الآية الكريمة ، لما تسلط عليهم أحد من الأعداء ولقامت لهم أمتهم الواحدة ، ولصار لهم قوة ومهابة ، فصلاح الرجل وأسرته صلاح للأمة بأسرها ، وهل الأمة إلا الأسرة المتكررة ؟ اللهم ربنا اجعلنا ممن يفقه هذه الآية ويعمل بها ، اللهم اجعلنا ممن يقي نفسه وأهله نارك وسخطك وعذابك ، اللهم ربنا وفقنا إلى رضوانك والجنة بفضلك وجودك وكرمك وعظيم منتك علينا يا حي يا كريم ، آمين .

---

١ – رواه الترمذي ج٥/٢٥٧ رقم ٣٠٥٨ وقال : حديث حسن غريب . وقال الألباني : ضعيف لكن بعضه صحيح . انظر صحيح وضعيف الترمذي للألباني ج١٧/٥٨ رقم ٣٠٥٨.

٢-**رواه أحمد (٤٩٨٧) وأبو داود(٣٤٦٢) وصححه الالباني في صحيح ابن داود .**

الوقفة الأولى : موطن من مواطن الإيمان الواجب .

قوله تعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾[1].

فيه : موطن من مواطن الإيمان الواجب ، وهو نداء خاص موجه لمن حافظ على أصل الإيمان ولم ينقضه بناقض ، وسعى لزيادة إيمانه بالأعمال الواجبة .

وهو نداء خاص بالذين آمنوا بالله الخالق الحكيم العليم الخبير ، الذي يعلم ما يصلح الأسرة ويسعدها في الدنيا ، وما ينجيها من عذابه يوم يفر المرء من صاحبته وبنيه ، ويوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ، فلم يشرع إلا ما فيه سعادة الأسرة والأمة والخلق جميعاً في الدنيا والآخرة .

وهو نداء خاص بالذين آمنوا بهذا الكتاب العظيم كلام رب العالمين الذي أنزل على إمام المتقين نبينا الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، الذي كانت حياته ترجمة للقرآن الكريم وبياناً له .

وهو نداء خاص بالذين آمنوا ، الذين إذا سمعوا نداء ربهم قالوا : لبيك يا رب لبيك ... فالمؤمن يطيع الله ورسوله ، قال تعالى : (وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين)[2] ويسارع في الاستجابة ويسارع في الاستجابة لنداء ربه ، فما إن يسمع قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً) حتى يقول : لبيك يا رب سأقي نفسي وأهلي نار جهنم ، ثم يترجم استجابته إلى مشروع عمل والتزام .

١- التحريم الآية ٦

٢ - الأنفال الآية ١.

وإذا كان من يسمع النداء ليس مؤمناً ، فلا فائدة ترجى منه ، إذن : لنتفق أن المخاطبين في هذه الآية الكريمة هم أهل الإيمان الذين أرعوا سمعهم لهذا النداء العظيم ، ووعوا حجم المسؤولية ، ومقدار التكليف المراد منهم .

وفي الأثر أن رجلاً أتى عبد الله بن مسعود ﷺ ، فقال : اعهد إليّ فقال : إذا سمعت الله تعالى يقول : (يا أيها الذين آمنوا) فأرعها سمعك ، فانه خير يأمر به ، أو شر ينهى عنه [1].

****

الوقفة الثانية : نداء خاص للرجال المؤمنين دون النساء

قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ ﴾

فيه : النداء خاص بالرجال المؤمنين دون النساء .

الأصل في كل خطاب عام أن يتناول الرجال المؤمنين والنساء المؤمنات معاً ، إلا إذا جاء ما يخصصه للرجال المؤمنين دون النساء كما في هذه الآية ، بدليل قوله تعالى : (وأهليكم) ولو كان المراد بهذه الآية الرجال والنساء معاً ، لما كان لهذه اللفظة أي فائدة ، وكلام الله مصون عن اللغو .

فقوله تعالى : (وأهليكم) علم منه أن الرجل هو المسؤول عن وقاية زوجته وسائر أهله نار جهنم ، فالمرأة أماً أو زوجة أو بنتاً أو أختاً مسؤول عنها ولي أمرها ، وهو المكلف بوقايتها نار جهنم ما دامت تحت ولايته .

١ - حلية الأولياء ج٦٧/١ ، والزهد للإمام أحمد ج٤٠٣/٢ ، والزهد لابن المبارك ج١٢/١.

والمرأة في غالب أحوالها ضعيفة لا تستطيع أن تقي نفسها نار جهنم ، وإلا لما وجه ربنا الحكيم العليم خطابه لولي أمرها بأن يقيها النار، ومن حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ ، قال : (اللهم إني أحرج حق الضعيفين اليتيم والمرأة)[1] فهذا نص بأن المرأة ضعيفة مثلها مثل اليتيم ، وأنها بحاجة إلى ركن قوي تأوي إليه ، وبحاجة إلى زوج أو ولي أمر يرعاها ويدير أمرها ، ويقيها نار جهنم ، وهو الذي سيسأل عنها ، لكنها في بعض أحوالها إذا غاب عنها ولي أمرها أو استقلت ببعض الأعمال الخاصة بالنساء ، فهي مسؤولة عن نفسها مثلها مثل الرجل تماماً .

فالآية الكريمة تخاطب الرجال دون النساء ، والرجولة هنا لا معنى لها دون أن تصطبغ بالإيمان ، فيعي صاحبها عظم المسؤولية الملقاة عليه ، ومقدار التكليف المراد منه .

أقوال المفسرين في أن الرجل هو المخاطب بهذه الآية الكريمة :

قال القرطبي يرحمه الله في تفسيره لهذه الآية :

فيه مسألة واحدة : وهي الأمر بوقاية الإنسان نفسه وأهله النار ، **فعلى الرجل** أن يصلح نفسه بالطاعة ، ويصلح أهله إصلاح الراعي للرعية ، فيأمرهم وينهاهم ويعلمهم الحلال والحرام ، ويجنبهم المعاصي والآثام إلى غير ذلك من الأحكام . قال بعض العلماء لما قال : (قوا أنفسكم) دخل فيه الأولاد ؛ لأن الولد بعض منه .

---

١ – رواه الإمام أحمد في المسند ج٢٠/ ٤٤٧ رقم ٩٩١٦. والحاكم في المستدرك ج٨٦/١ رقم ٢١١ وقال : صحيح على شرط مسلم . ووافقه الذهبي . والبيهقي في السنن ج٧٠/٢ رقم ٢٠٩٥٦.

قال ابن عباس ﷺ : قوا أنفسكم ، وأمروا أهليكم بالذكر والدعاء حتى يقيهم الله بكم .

وقال علي ﷺ وقتادة ومجاهد : قوا أنفسكم بأفعالكم ، وقوا أهليكم بوصيتكم .

وذكر القشيري أن عمر ﷺ ، قال لما نزلت هذه الآية : يا رسول الله نقي أنفسنا فكيف لنا بأهلينا ؟ فقال : (تنهونهم عما نهاكم الله وتأمرونهم بما أمر الله).

وقال مقاتل : ذلك حق عليه في نفسه وولده وأهله وعبيده وامائه [١] .

وقال السيوطي يرحمه الله في الإكليل فيما يستنبط من الآية : فيها أنه **يجب على الرجل** تعلم ما يجب عليه من الفرائض وتعليمه أهله من زوجة وولد وعبد وأمة [٢] .

وقال السمعاني يرحمه الله في تفسيره لهذه الآية : أي بفعلكم . **أيها الرجال أولياء الأمور** . طاعة الله ، وأمركم إياهنّ بطاعة الله . ويقال : أدبوهنّ وعلموهنّ ودلوهنّ على الخير ...

وعن عمرو بن قيس الملائي قال : إن المرأة لتخاصم زوجها يوم القيامة عند الله فتقول : إنه كان لا يؤدبني ولا يعلمني شيئاً ، كان يأتيني بخبز السوق [٣] .

---

١ – تفسير أحكام القرآن للقرطبي ج١٨/١٢٨.

٢ – الإكليل في استنباط التنزيل للسيوطي ج٣/١٢٦٩

٣ – تفسير القرآن للسمعاني ج٥ /٤٧٥ . قلت : كما هو حاصل اليوم يخرج الرجل من بيته صباحاً ولا يرجع إلى أهله إلا في وقت متأخر من الليل !! وإذا سألت الرجل : لماذا لا تعمل في الدنيا بمقدار وتتفرغ لوقاية نفسك وأهلك النار ؟ أجاب : بأنه يريد أن يطعم العيال الخبز !!.

مسألة وجوابها :

استشكل بعض طلبة العلم ، حديث ابن عمر ﷺ قال : عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (كلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته ، والأمير راع ، والرجل راع على أهل بيته ، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده ، فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته) [1].

فهذا الحديث ذكر أن المرأة راعية ، وهي مسؤولة عن رعيتها أيضاً ، ولا يخفى أن الرعاية نوع وقاية ، فالمرأة عندما ترعى بيت زوجها وولده فهو نوع وقاية من النار ؟.

والجواب : أن المرأة في غالب أحوالها ضعيفة لا تستطيع أن تقي نفسها نار جهنم ، وإلا لما وجه ربنا الحكيم العليم خطابه لولي أمرها بأن يقيها النار، لكنها في بعض أحوالها إذا غاب عنها ولي أمرها أو استقلت ببعض الأعمال الخاصة بالنساء ، فهي مسؤولة عن نفسها مثلها مثل الرجل تماماً .

فقوله ﷺ : (والمرأة راعية على بيت زوجها وولده) نص في أن المرأة راعية على بيت زوجها ، أي بما فيه نفسها وولد زوجها وماله ومتاعه .

فالمرأة راعية وأمينة على نفسها إذا غاب عنها زوجها ، تحفظ نفسها من كل سوء ورذيلة وخيانة ، ولا تدخل بيت زوجها أحداً إلا بإذنه ... .

والمرأة راعية وأمينة على ولده فيما هو من اختصاصها تحفظه وتحضنه ولا ترضعه إلا من ثديها ، وترضعه مع حليبها العفاف والأمانة والاخلاق الطيبة وتعطيه الحنان والمودة ... .

---

١ – رواه البخاري ج٥/١٩٩٦ رقم ٤٩٠٤ ، ومسلم ج٣/١٤٥٩ رقم ١٨٢٩.

والمرأة راعية وأمينة على مال زوجها ومتاعه تحفظه من الضياع والإسراف والتبذير والسرقة .

فالمراد من رعاية المرأة في بيت زوجها وولده فيما هو من اختصاص النساء ، وهذا كله ليس للرجل فيه حيلة ، فالمرأة إذا أرادت أن تدخل أحداً بيت زوجها وتخونه دون علمه فعلت ، والمرأة إذا أرادت أن ترضع ولدها من ثدي غيرها أو ترضع أحداً من ثديها دون علم زوجها فعلت ، والمرأة إذا أرادت أن تسرق من مال زوجها ومتاعه دون علمه فعلت ... الخ .

فمثل هذا كله المرأة هي الراعية فيه والمسؤولة عنه يوم القيامة ، وليس المراد برعاية المرأة على أهل بيتها أن تكون ولية للأمر ، وإلا فلا يجتمع للأسرة الواحدة راعيان أو وليان للأمر في وقت واحد .

فالرجل هو قائد الأسرة وربانها ، قال تعالى﴿ **ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ** ﴾ [1] وهو المكلف بالقوامة والإدارة والرعاية والوقاية ، وهو مسؤول عن وقاية نفسه ووقاية أهله وأولاده نار جهنم ، كما هو مبين في قوله ﷺ : (والرجل راع على أهل بيته) وهذا نص في أن الرجل هو الراعي على أهل بيته وليست المرأة ، وأول ما يدخل في أهل بيت الرجل زوجته ، وهي تحت ولايته ، وهو مسؤول عنها أحفظ أم ضيع .

١ – النساء الآية ٣٤ .

ولا يمنع أن تكون المرأة راعية لأولادها في بيتها بإدارة ولي أمرها ، أو أن تكون نائبة له إن غاب يوماً أو أياماً معدودات ، فإذا حضر رفعت إليه شؤونهم ، لكن ليس للرجل أن يسلم زمام الإدارة والقوامة لأهله ، وهو لا يدري عن أولاده شيئاً ، فالمرأة ضعيفة لا تقوى أن تقوم على الأسرة وتدير أمرها ، وإذا كانت الأم مدرسة كما قيل : الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق .

فإن الرجل هو مدير هذه المدرسة ، وولي أمرها والمسؤول عنها الذي يرعاها ويقوم عليها ويدير شؤون طلابها ...

وإن صلاح المدرسة وطلابها من صلاح الرجل المدير ، وفسادها من فساده ، فما من زائر يزور مدرسةً ، ويجد الفوضى قد عمت أرجائها ، والضوضاء قد انبعثت من أركانها ، إلا وسيلقي باللائمة الكبرى على مديرها المسؤول عنها .

فالرجل هو ولي الأمر المسؤول ـ يوم لا ينفع مال ولا بنون ـ عن أهله وأولاده ومن تحت ولايته ، وواجب عليه أن يقيهم ويبعدهم عن نار جهنم ، كما يقيهم ويبعدهم عن نار وحر الدنيا تماماً ، بل وأشد ؛ لأن نار جهنم أشد حراً ، نسأل الله لنا ولأهلينا السلامة والعافية .

****

****

الوقفة الثالثة : إذا كانت المرأة ضعيفة وعاجزة لا تستطيع أن تقي نفسها نار جهنم في غالب أحوالها ، فإنها عن وقاية غيرها أضعف وأعجز.

قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ﴾

فيه : أن المرأة أضعف وأعجز من أن تقي غيرها نار جهنم .

لقد علمنا في الوقفة السابقة أن هذا النداء خاص بالرجال المؤمنين دون النساء ، وأن المرأة ضعيفة وعاجزة لا تستطيع أن تقي نفسها نار جهنم في غالب أحوالها ، وإلا لما وجه ربنا خطابه لولي أمرها بأن يقيها النار ، وإذا كان الأمر كذلك فلا يخفى على أصحاب العقول السليمة أن فاقد الشيء لا يعطيه .

ولذا نقول : إذا تقرر لدينا بالدليل أن المرأة في غالب أحوالها ضعيفة وعاجزة ، ولا تستطيع أن تقي نفسها نار جهنم ، فإنها عن وقاية غيرها أضعف وأعجز .

****

الوقفة الرابعة : أهل الرجل زوجته وولده وكل من تحت ولايته ... .

قوله تعالى : ﴿ **وَأَهۡلِيكُمۡ** ﴾

فيه : أهليكم جمع أهل ، وأهل الرجل هم زوجته وأولاده بنين وبنات ، والأخت إن كان ولي أمرها أخوها ، والأم إن كان ولي أمرها ابنها ، وكل من تحت ولاية الرجل من إماء وعبيد .

قال المباركفوري رحمه الله : وأهل الرجل امرأته وولده وكل من في عياله ، وكذا كل أخ أو أخت أو عم أو ابن عم أو صبي أجنبي يعوله في منزله ، وعن الأزهري : أهل الرجل أخص الناس به ، ويكنى به عن الزوجة ، قاله العيني[١].

وقال السعدي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية : ووقاية الأنفس بإلزامها أمر الله والقيام بأمره امتثالاً ونهيه اجتناباً والتوبة عما يسخط الله ويوجب العذاب ، ووقاية الأهل والأولاد بتأديبهم وتعليمهم وإجبارهم على ما أمر الله فلا يسلم العبد إلا إذا قام بما أمر الله في نفسه ، وفيما يدخل تحت ولايته من الزوجات والأولاد وغيرهم ممن هو تحت ولايته وتصرفه [٢].

وقال البخاري رحمه الله : (وقيَّد ابنُ عباس عكرمة على تعلُّم القرآن والسُّنن والفرائض) [٣].

قال ابن حجر رحمه الله في الفتح في هذا الأثر : وصله ابن سعد في الطبقات وأبو نعيم في الِحلية من طريق حمّاد بن زيد عن الزبير بن الخِرِّيت عن عكرمة قال : كان ابن عباس يجعل في رجلي الكَبْل فذكره ، والكبل بفتح الكاف وسكون الموحدة بعدها لام هو القيد [٤].

---

١ – انظر تحفة الأحوذي ج٩/٥٣ . قال ابن حجر رحمه الله في شرحه لحديث مالك بن الحويرث: (فلما رأى شوقنا إلى أهلنا) والمراد بأهل كل منهم زوجته أو أعم من ذلك . انظر فتح الباري ج١٣/٢٣٦.

٢ – انظر تفسير السعدي ص٨٧٤.

٣ – صحيح البخاري كتاب الخصومات ، باب ٧ .

٤ – انظر فتح الباري ج ٥ ص ٧٥.

قلت : هذا الأثر يدل على حرص ابن عباس ﷺ الشديد على تعليم مولاه عكرمة حتى أنه كان يُقَيِّده بالكبل في رِجْله ، وذلك لأن الموالي والعبيد تدخل في عموم قوله تعالى : ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ﴾

فلفظ أهل الرجل يطلق على الزوجة والأولاد والأم والأخوات ، وكل من يعول في بيته، ومن تحت ولايته من إماء وعبيد. والأدلة على ذلك لا تخفى على أحد منها:

قوله تعالى : ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ [1] ، والمراد بأهله أي سارة زوجة إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

وقوله تعالى : ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾ [2] .

وقوله تعالى : ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ [3] ، والمراد بالأهل في الآيتين السابقتين أي بنتي لوط عليه الصلاة والسلام إلا امرأته ، والاستثناء في الآية متصل فدل على أن الزوجة من الأهل أيضاً .

وقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ (٤٦) قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ [4] ، فالآية تدل على أن الابن من الأهل ، إلا أن ابن نوح ليس من أهله الصالحين .

---

١ – الذاريات الآية ٢٦ .

٢ – هود الآية ٨١ .

٣ – الأعراف الآية ٨٣.

٤ – هود الآية ٤٥ ، ٤٦.

الوقفة الخامسة : وقاية النفس والأهل لا تكون إلا بطلب العلم الذي فرضه الله.

قوله تعالى : ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ ﴾

فيه : إشارة إلى طلب الرجل المؤمن للعلم الواجب الذي يقي به نفسه وأهله نار جهنم ، فهذا الأمر الإلهي لا سبيل لأهل الإيمان إلى تنفيذه إلا بطلب العلم الذي أوجبه الله عليهم .

قال النووي رحمه الله : ودليل وجوب تعليم الولد الصغير والمملوك ، قول الله عز وجل : (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً) . قال علي بن أبي طالب ﷺ ومجاهد وقتادة : معناه علّموهم ما ينجون به من النار[١].

وقال السيوطي يرحمه الله في الإكليل فيما يستنبط من الآية : فيها أنه يجب على الرجل **تعلم ما يجب عليه من الفرائض وتعليمه أهله** من زوجة وولد وعبد وأمة [٢].

فطلب العلم الذي ينجو به الرجل بنفسه وأهله وأولاده ومن تحت ولايته من النار فريضة عليه ، ومن حديث أنس ﷺ ، قال : قال رسول الله ﷺ : (طلب العلم فريضة على كل مسلم) [٣]. أي طلب الرجل المسلم للعلم الذي يقي به نفسه وأهله نار جهنم

---

١ – انظر المجموع للنووي ج١/٢٦ .

٢ – الإكليل في استنباط التنزيل للسيوطي ج٣/١٢٦٩.

٣ – رواه ابن ماجه ج١/٨١ رقم ٢٢٤ ، وانظر صحيح الجامع للألباني م٢ رقم ٣٩١٣ .

فريضة عليه . والقاعدة في ذلك : كل أمر فرضه الله على المكلف ، فانه فرض عليه أن يتعلم من أحكامه مالا يقوم إلا به .

والفروض دائمة ومؤقتة ، فالدائمة كتوحيد الله وإخلاص العبادة له وحسن الظن به والمحبة والخوف والرجاء والصدق ... والمؤقتة كالصلاة والصيام والزكاة والحج وما يلحق بها ... ويجب على كل مكلف أن يتعلم هذه الفروض وأحكامها التي لا تقوم إلا بها ، وهذا من وقاية الرجل نفسه وأهله نار جهنم .

ولا يخفى أن طلب علوم الشريعة باختصاصاتها المختلفة ، ومثلها اللغات والطب والهندسة والميكانيك والكهرباء والحاسب وغيرها فهي من فروض الكفاية ، وما كان فرض كفاية إذا قام به بعض المكلفين سقط إثمه عن الباقين ، ولا يصح أن يفرض على عامة المسلمين ... .

* * * * * * *

الوقفة السادسة : الرجل المؤمن هو الذي يخرج لطلب العلم الواجب فيقي نفسه ثم يرجع إلى أهله وأولاده فيعلمهم ما فرضه الله عليهم ؛ ليقيهم بذلك نار جهنم .

قوله تعالى : ﴿ **قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ** ﴾

فيه : أن هذا الأمر الإلهي الموجه إلى الرجال المؤمنين لا سبيل إلى تنفيذه إلا بطلب العلم الواجب ، أي أيها الرجل المؤمن تعلم ما أوجبه الله عليك ، ثم ارجع إلى زوجتك وأولادك ومن هم تحت رعايتك فعلمهم ما تعلمت ، فأنت ولي الأمر والرجل القائد

والزوج القيم المسؤول عن وقاية نفسك وأهلك نار جهنم ، أما المرأة من زوجة وبنت وأخت وأم ، فالأصل فيها القرار في البيت ـ مصونة ومكرمة وعزيزة ـ ولا يلزمها في غالب أحوالها الخروج منه ، لا سيما إذا كان وليها يقوم بتعليمها ورعايتها ووقايتها نار جهنم .

وللرجل أن يصحب أهله إلى مجالس العلم ليستمعن الموعظة من العلماء دون الخلوة بهنّ ، وليسألن عن العلم دون الخلوة بهنّ ، وليس للرجل أن يمنع أهله من الذهاب إلى المسجد للصلاة أو لحضور موعظة أو درس علم يلقى فيه ، ويأذن لها في زيارة نساء صالحات تتعلم منهنّ ، ولها أن تسأل بنفسها إذا نزلت بها نازلة تجهل حكمها ، وإذا استحيت فلزوجها أن يسأل العلماء نيابة عنها ، وقد بوب الإمام البخاري في كتاب العلم من صحيحه باباً سماه : (من استحيا فأمر غيره بالسؤال) وبإمكانها اليوم أن تسأل أهل العلم والفقه عن طريق الهاتف ، ويمكنها أن تسمع أشرطة التسجيل النافعة المفيدة .

قال الإمام ابن الجوزي رحمه الله : المرأة شخص مكلف كالرجل فيجب عليها طلب علم الواجبات لتكون من أدائها على يقين ، فان كان لها أب أو أخ أو زوج أو محرم يعلمها الفرائض ويعرفها كيف تؤدي الواجبات كفاها ذلك ، وان لم يكن سألت وتعلمت ، فان قدرت على امرأة تعلم ذلك تعرفت منها ، وإلا تعلمت من الأشياخ وذوي الأسنان من غير خلوة بها وتقتصد على قدر اللازم ، ومتى حدثت لها حادثة في دينها سألت ولم تستح فان الله لا يستحي من الحق [1].

١ – انظر أحكام النساء لابن الجوزي ص١٣٩ .

فالأصل في المرأة أنها مصونة ومكرمة وعزيزة تقر في بيتها ، ولا تخرج منه إذا وجد من يكفيها مؤنة الخروج ، قال تعالى : (وقرن في بيوتكن)[١] ، ويقول نبينا الكريم عليه أفضل الصلاة وأكمل التسليم : (والمرأة راعية في بيت زوجها وولده)[٢] .

إذن : الرجل هو ولي أمر المرأة وهو الذي يكفي أهله مؤونة الخروج من البيت فيتعلم ما أوجبه الله عليه ويقي نفسه النار ، ثم يرجع إلى أهله فيعلمهم ما أوجبه الله عليهم وهذا ما كان عليه سلف الأمة ،

الأدلة على **تعليم الرجل أهله العلم**

١ ـ عن مالك بن الحويرث ﷺ قال : أتينا إلى النبي ﷺ ، ونحن شببة متقاربون فأقمنا عنده عشرين ليلة ، فظن أنا اشتقنا أهلنا ـ وفي رواية : اشتهينا أهلنا ـ وسألنا عمن تركنا بعدنا ، فأخبرناه وكان رفيقاً رحيماً ، فقال : (**ارجعوا إلى أهليكم فعلموهم** ومروهم وصلوا كما رأيتموني أصلي..)[٣] .

فالعلاقة بين الرجل وأهله ليست قضاء وطر وشهوة فحسب ـ كما هو حال كثير من الأزواج ـ وإنما على الرجل أن يسعى لطلب العلم ، ولو كلفه ذلك أن يبتعد عن أهله

---

١ – الأحزاب الآية ٣٣.

٢ – رواه البخاري ج١٩٩٦/٥ رقم ٤٩٠٤ ، ومسلم ج١٤٥٩/٣ رقم ١٨٢٩.

٣ – رواه البخاري بروايات متعددة برقم ٦٢٨ و ٦٣١ و ٦٠٠٨ و ٧٢٤٦ ، ومسلم برقم ٢٩٢ ج١٧٤/٥. قال ابن حجر : قوله : (اشتهينا أهلنا) في رواية الكشميهني : (أهلينا) بكسر اللام وزيادة ياء وهو جمع أهل، ويجمع مكسراً على أهال بفتح الهمزة مخففاً، ووقع في رواية في الصلاة : (اشتقنا إلى أهلنا) بدل : (اشتهينا أهلنا) وفي رواية وهيب : (فلما رأى شوقنا إلى أهلنا) والمراد بأهل كل منهم زوجته أو أعم من ذلك . فتح الباري ج٢٣٦/١٣.

أياماً معدودات ، ويرجع إلى أهله فيعلمهم ما تعلم من فروض وواجبات ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكرات ؛ ليقيهم بذلك نار جهنم .

٢ ـ عن صفية بنت شيبة ﷺ ، قالت : بينما نحن عند عائشة ﷺ قالت : ذكرت نساء قريش وفضلهنّ ، فقالت عائشة ﷺ : إن لنساء قريش فضلاً ، وإني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار وأشد تصديقاً لكتاب الله ولا إيماناً بالتنزيل ، لقد أنزلت سورة النور : (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) **فانقلب رجالهنّ إليهنّ يتلون عليهنّ ما أنزل الله فيهنّ ، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذي قرابة** ، فما منهنّ امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل

ـ كساء من صوف ونحوه يؤتزر به ـ فاعتجرت به ـ جعلنه معجراً وهو الخمار يلبس على الرأس ـ تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله تعالى في كتابه ، فاصبحن وراء رسول الله ﷺ في صلاة الفجر معتجرات كأنّ على رؤوسهنّ الغربان[١] .

ومحل الشاهد قول أم المؤمنين ﷺ : فانقلب رجالهنّ إليهنّ يتلون عليهنّ ما أنزل الله فيهنّ ، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذي قرابة .

فالرجل هو الذي يخرج فيتعلم العلم الواجب ثم ينقلب إلى أهله وأولاده وإخوانه وأخواته ومن هم تحت ولايته ، فيعلمهم ما تعلم ، فيقيهم بذلك النار ، وهذا هو حال سلفنا الكرام ، وصحابة سيد الأنام ﷺ ، فما إن تليت على رجال الصحابة رضوان الله

١ – رواه أبو داود ج ٦١/٤ رقم ٤١٠١ ، وقال الألباني : صحيح . وانظر فتح الباري ج٤٩٠/٨ ، وتفسير ابن كثير ج٢٨٥/٣ .

عليهم هذه الآيات الكريمات حتى سارعوا إلى نسائهم وبناتهم وأخواتهم ومن تحت ولايتهم يتلون عليهنّ ما سمعوا من الآيات ليعملن بها .

٣ـ عن أبي الدرداء ﷺ قال : (كنا مع النبي ﷺ فشخص ببصره إلى السماء ثم قال : هذا أوان يختلس العلم من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء. فقال زياد بن لبيد الأنصاري : كيف يختلس منا وقد قرأنا القرآن ؟ **فوالله لنقرأنه ، ولنقرأنه نساءنا وأبناءنا**، قال : ثكلتك أمك يا زياد، إن كنت لأعدك من فقهاء أهل المدينة هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا تغني عنهم ؟)[١] وفي رواية : (وكيف يقبض **وقد قرأنا القرآن وأقرأناه نساءنا وأبناءنا** ؟ ... هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل لا يعملون بشيء مما فيهما)[٢].

ومحل الشاهد : وقد قرأنا القرآن ، والله لنقرأنه ، ولنقرأنه نساءنا وأبناءنا .

وفي الرواية الثانية : وقد قرأنا القرآن ، وأقرأناه نساءنا وأبناءنا .

فالرجل هو الذي يخرج إلى طلب العلم فيَقرأ القرآن الكريم ، ثم يرجع إلى بيته فيُقرأ أهله وأبناءه القرآن الكريم ، لكن القراءة وحدها لا تكفي ، والمطلوب تعلم القرآن وتعليمه ، فعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ عن النبي ﷺ قال : (خيركم

---

١ – رواه الترمذي ج٥/٣١ رقم ٢٦٥٣ وقال : حديث حسن غريب . والحاكم في المستدرك ج١/١٧٩ رقم ١٣٨ ، وقال : اسناده صحيح . ووافقه الذهبي في التلخيص . والدارمي ج١/٩٩ رقم ٢٨٨ .

٢ – رواه الطبراني في الكبير ج٢٢/١٣٧رقم ٣٦٥ ، وقال الهيثمي في الزوائد ج١/٢٠١ : اسناده حسن . وانظر صحيح الجامع للألباني م٢ رقم٦٩٩٠.

من تعلم القرآن وعلمه) [١] . فلفظ : (تعلم) يشمل القراءة وغيرها من علوم القرآن الكريم كما يشمل العمل به [٢] ، أما لفظ : (قرأنا القرآن) فمقصور على القراءة والتلاوة ، ومن هنا قال نبينا الكريم لزياد بن لبيد ﷺ: (ثكلتك أمك يا زياد ، إن كنت لأعدك من فقهاء أهل المدينة ، هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل[٣] لا يعملون بشيء مما فيهما ، فماذا تغني عنهم ؟) .

وكذلك يختلس العلم من المسلمين عندما يقرؤون القرآن الكريم ويجتهدون في قراءته حتى يحفظونه غيباً ، لكنهم لا يعملون بشيء منه ، فتراهم يقرؤون مثلاً قوله تعالى : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ** ﴾ [٤] ، ولا يعملون

---

١ – رواه البخاري ج١٩١٩/٤ رقم ٤٧٣٩ ، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه .

٢ – من المعلوم تربوياً أن المعلم إذا أعطى تلاميذه درساً في النظافة ، ثم لاحظ لدى خروجهم في الفسحة ، أن بعضهم رمى المناديل المستعملة في سلة المهملات ، وبعضهم الآخر رماها على الأرض ، فإنه يقرر في دفتره (النتائج) عن بعضهم الأول : لقد تعلم هؤلاء النظافة ؛ لأنهم فهموا معنى النظافة وطبقوا وعملوا بما علموا . وعن الآخرين : لم يتعلم هؤلاء النظافة ؛ لأنهم لم يطبقوا ولم يعملوا بما علموا .

٣ – ولم يقل ﷺ : (تعلموا التوراة والإنجيل) لأن العلم يقتضي العمل ، وعن الحسن في قوله تعالى : (وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم) قال : علمتم فعلمتم ولم تعملوا ، فوالله ما ذالكم بعلم . وقال سفيان الثوري : العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل . انظر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ج٣٦٥/٢ رقم ٣١٦ ، واقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي ج٤٢/١ رقم ٤٠.

٤ – التحريم الآية ٦.

بهذه الآية الكريمة ، ولا يقون أنفسهم ولا أهليهم نار جهنم ، حتى بلغ الحال ببعض القراء أنهم يحفظون القرآن الكريم عن ظهر قلب ، ويجيدون تلاوته بمختلف القراءات ، لكنهم لا يعملون بشيء مما فيه ، ولا يتقون الله في أنفسهم ، ولا في ظاهرهم ، ولا يتقون الله في نسائهم وبناتهم ، فتراهنّ في المحافل العامة حاضرات ، وبعضهنً كاسيات عاريات ، نعوذ بالله من الردى .

والخلاصة : أن الرجل هو الذي يخرج في طلب العلم ، فيتعلم القرآن الكريم والعمل به ، ثم يرجع إلى أهله فيعلمهم ما تعلم ، ويرشدهم للعمل به ، فيقي بذلك أهله وأولاده النار .

٤ ـ عن أبي أمامة ﷺ قال : رآني النبي ﷺ وأنا أحرك شفتي ، فقال : (ما تقول يا أبا أمامة ؟ قلت : أذكر الله ، قال : أفلا أدلك على ما هو أكثر من ذكرك الله الليل والنهار ؟ تقول : (الحمد لله عدد ما خلق ، والحمد الله ملء ما خلق ، والحمد لله عدد ما في السموات والأرض ، والحمد لله عدد ما أحصى كتابه، والحمد لله ملء ما أحصى كتابه، والحمد لله عدد كل شيء، والحمد لله ملء كل شيء ، وتسبح مثلهن) ثم قال : **<u>تعلمهنّ وعلمهنّ عقبك من بعدك</u>**[1] .

---

١ – انظر مجمع الزوائد للهيثمي ج٩٣/١٠ وقال : رواه الطبراني ج٢٣٨/٨ رقم ٧٩٣٠ ، وفيه الليث بن أبي سليم وهو مدلس . وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٦١٥.
قلت : وهنا قال ﷺ : (تعلمهنّ وعلمهنّ) ولم يقل : (اقرأهنّ وأقرأهنّ) لأن لفظ العلم يتضمن ويقتضي العمل ، ولا يتضمن لفظ القراءة العمل .

وفي رواية : (قال : فكان أبا أمامة إذا حدث بهذا الحديث انساناً قال : إن رسول الله ﷺ **أمرني أن أعلمهنّ عقبي من بعدي ، فعلمهنّ عقبك من بعدك**)[1].

ومحل الشاهد أمر نبينا الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم لأبي أمامة بقوله: تعلمهن وعلمهن عقبك من بعدك . ثم أن أبا أمامة ﷺ كان إذا حدث بهذا الحديث إنساناً قال له : إن رسول الله ﷺ أمرني أن أعلمهنّ عقبي من بعدي ، فعلمهنّ عقبك من بعدك .

والمراد بعقب الرجل أولاده من بنين وبنات ، فالرجل هو الذي يتعلم ويعلم أهله وأولاده الأذكار ، ويكون ذاكراً قبلهم ، فإذا رأى الأولاد حرص والدهم على ذكر الله عموماً ، وعلى أذكار الصباح والمساء والأذكار المقيدة خاصة انتقل إليهم حاله وعمله ، فتراهم يواظبون عليها في الغدو والأصال .

٥ ـ عن عائشة ﷺ ، أن النبي ﷺ **جمع أهل بيته** فقال : (إذا أصاب أحدكم غم أو كرب ، فليقل : الله ، الله ربي لا أشرك به شيئاً)[2].

فنبينا الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم يعلم أمته ، كيف يجمع الرجل أهله من زوجات وبنين وبنات وأخوة وأخوات ومن هم تحت ولايته ، من أجل أن يعلمهم ما تعلم من القرآن الكريم أو السنة ، فيقيهم بذلك نار جهنم ، التي أمره ربه أن يقي نفسه وأهله منها .

---

١ – مسند الروياني ج٢/٢٩١ رقم ١٢٣٣.

٢ – رواه ابن حبان ج٣/١٤٥ رقم ٨٦٤ .

والنبي عليه الصلاة والسلام يُعلم أهل بيته رضي الله عنهم ، أنه إذا أصاب أحدهم غم أو كرب فليقل : (الله الله ربي لا أشرك به شيئاً) فالمؤمن إذا أصابه هم أو غم أو كرب يصبر ولا يضيق صدره ، ولا يتفوه بعبارات أو ألفاظ يشرك بها مع الله أحداً ، فيبطل عمله ويدخل بذلك نار جهنم ، وإنما المؤمن الذي إذا أصابه غم أو كرب تذكر أن عمله لله ، وأنه لا يشرك به شيئاً ، وأن الأمر كله لله ، فيقي بذلك نفسه نار جهنم .

٦ ـ عن أبي ذر ﷺ إن رسول الله ﷺ قال : (إن الله ختم سورة البقرة بآيتين أعطانيهما من كنزه الذي تحت العرش **فتعلموهنّ وعلموهنّ نساءكم وأبناءكم** ، فانهما صلاة وقرآن ودعاء)[1].

فقوله ﷺ : فتعلموهنّ وعلموهنّ نساءكم وأبناءكم . يدل على أن رجال الصحابة رضي الله عنهم هم الذين تعلموا خواتيم سورة البقرة ومالها من فضل وعظيم الثواب ، وقد أمرهم النبي ﷺ أن يعلموها نسائهم وأبنائهم .

فالرجل هو الذي يتعلم العلم ، ثم يرجع إلى أهله فيعلمهنّ ما تعلم .

وتعلم وقراءة خواتيم سورة البقرة في البيت من وقاية الرجل نفسه وأهله النار ، إذ لا يقر الشيطان في بيت تقرأ فيه خواتيم سورة البقرة ، وهذا إحسان للأهل وللأولاد ، فيكونوا في مأمن وحرز من الشيطان بإذن الله ، ولما ضيع كثير من الرجال ـ أولياء الأمور ـ أنفسهم وأعرضوا عن العلم ، ولم يعلموا فضل خواتيم سورة البقرة ،

١ – رواه الحاكم في المستدرك ج١/٧٥٠ رقم ٢٠٦٦ ، وقال : صحيح على شرط البخاري . والمنذري في الترغيب ج٢/٢٤٣ رقم ٢٢٥٤ .

ولم يقرؤوها في بيوتهم كانت النتيجة أن عشش الشيطان فيها ، وقع التحريش بين الزوجين أو بين الأولاد ، وكان ذلك سبباً من أسباب وقوعهم في المعصية وعدم وقايتهم نار جهنم .

آثار السلف الصالح وأقوال العلماء في وجوب تعليم الرجل أهله :

١- عبد الله بن الزبير ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (لا تكرهوا البنات فإنهن المجهزات المؤنسات) قال : ويعلم أهله ما لا تعلمه من أحكام العشرة ، وإن رآها مقصرة في العبادة حملها منها على ما تخرج به من حد التقصير ، وبصرها منها ما تجهله ، أو أذن لها في إتيان من يبصرها ذلك . قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم و أهليكم نارا) [١] .

٢ ـ قال ابن قدامة رحمه الله : قال القاضي : يجب على وَلِيّ الصبي أن يعلّمه الطهارة والصلاة إذا بلغ سبع سنين ويأمره بها ، ويلزمه أن يؤدبه عليها إذا بلغ عشر سنين [٢] .

٣ ـ وقال النووي رحمه الله : قال الشافعي والأصحاب رحمهم الله : على الآباء والأمهات تعليم أولادهم الصغار ما سيتعين عليهم بعد البلوغ فيعلمه الولي الطهارة والصلاة والصوم ونحوها ، ويعرّفه تحريم الزنا واللواط والسرقة وشرب المسكر والكذب والغيبة وشبهها ، ويعرّفه أنّه بالبلوغ يدخل في التكليف ، ويعرِّفه ما يبلغ به ،

١ ـ شعب الإيمان للبيهقي ج٦/٤١٠ رقم ٨٧٠٢ .

٢ ـ انظر المغني لابن قدامة ج١/٦٤٧.

وقيل هذا التعليم مستحب والصحيح وجوبه ، وهو ظاهر نصّه ، كما يجب عليه النظر في مآله وهذا أولى ، وإنما المستحب ما زاد على هذا من تعليم القرآن وفِقْه وأدب ، ويعرّفه ما يُصْلح به معاشه .

ودليل وجوب تعليم الولد الصغير والمملوك ، قول الله عز وجل : (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً) . قال علي بن أبي طالب ﷺ ومجاهد وقتادة : معناه علّموهم ما ينجون به من النار . وهذا ظاهر ، وثبت في الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال : (كلكم راع ومسؤول عن رعيته) [١].

٤ ـ وقال السيوطي رحمه الله في الإكليل : فيها أنه يجب على الرجل تعلم ما يجب عليه من الفرائض وتعليمه أهله من زوجة وولد وعبد وأمة [٢].

٥ ـ وقال الخطيب الشربيني رحمه الله في مغني المحتاج : ويلزم السيد أن يعلم غلامه العربية لأجل التكبير ، أو يخليه ليكتسب أجرة المعلم ، فلو لم يعلمه واستكسبه عصى بذلك [٣] ا.هـ.

****

١ – انظر المجموع للنووي ج١/٢٦ .

٢ – الإكليل في استنباط التنزيل للسيوطي ج٣/١٢٦٩.

٣ – مغني المحتاج للخطيب الشربيني ج١/١٥٠.

الوقفة السابعة : الرجل المؤمن يدفعه إيمانه إلى وقاية أهله نارجهنم أشد من وقايتهم نارالدنيا وحرها وقرها .

قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾

فيه : أن الرجل المؤمن يدفعه إيمانه إلى وقاية أهله نار جهنم أشد من وقايتهم نار الدنيا وحرها وقرها ، فلا يدع أمراً يبعدهم فيه عن النار إلا وأمرهم به ، فهو يوصيهم بما وصى به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أبنائهم ، ويدفعه إيمانه إلى تعليم نفسه وأهله دين الإسلام وشريعة نبينا محمد سيد الأنام ﷺ ، ويوصيهم أن يحيوا على هذا الدين حتى إذا فاجأهم الأجل ماتوا مسلمين ، ومن مات مسلماً نجا من الخلود في النار

وقد وصى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أبنائهم بدين الإسلام وشرائعه ، وأولها التوحيد الذي هو حق الله على العبيد ، قال الله تعالى : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[1].

والرجل المؤمن يدفعه إيمانه إلى أن يحذر أهله الشرك وعاقبته ، لينجو بهم من النار ، وله في موعظة لقمان لابنه منهاجاً يحتذي به ويسير عليه ...

قال تعالى : ﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣ ﴾وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ

١ – البقرة الآية ١٣٢ ، ١٣٣.

ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٤﴾وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمفَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٥﴾يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّة مِّنۡ خَرۡدَل فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِير ﴿١٦﴾يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ولَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَال فَخُور﴿١٨﴾وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ [1].

فالرجل المؤمن يدفعه إيمانه إلى تعليم نفسه وأهله ما يجب عليه من معرفة العبد ربه ودينه ونبيه محمداً ﷺ ، وتوحيد الله في ربوبيته وتوحيد الألوهية

(العبادة) وأسمائه وصفاته والإخلاص لله وحده لا شريك له وأركان الإيمان والإسلام ومحبة الله ورسوله ﷺ وصحابته رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان من المؤمنين ، وبغض أهل الشرك والكفر ومن تبعهم ووالاهم ، والخوف ، والرجاء ، والصدق ، والأمانة ، وسائر فروض الله الدائمة ، ويتعلم فروض الله المؤقتة كأحكام العبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج وما يلحق بها ، ومعرفة الواجبات الشرعية والحلال والحرام ،

١ – لقمان الآية ١٣ ، ١٩.

ويحذر أهله عاقبة الشرك ، وأنه ظلم عظيم ، ويعلمهم مراقبة الله تعالى في السر والعلن ، ويعلمهم إقامة الصلاة وما يجب لها من الطهارة والغُسل والتيمم ، ويأمر أولاده بالصلاة في سن السابعة ، ويضربهم عليها في سن العاشرة ، ويأطرهم عليها أطراً [١] ، ويفرق بينهم في المضاجع ، وقد أمر نبينا الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم الرجال أولياء الأمور بذلك فقال : (علموا أولادكم الصلاة إذا بلغوا سبعاً واضربوهم إذا بلغوا عشراً وفرقوا بينهم بالمضاجع) [٢]. ويعود الرجل أهله وأولاده بالتحبيب والترغيب صلاة النافلة ويصطبر عليهم ، قال تعالى : ﴿**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ**﴾[٣] .

١ – قلت : لا أن يخرج الرجل من بيته ولا يعود إليه إلا في وقت متأخر من الليل كما هو حاصل اليوم ، وكل الذي يعنيه أن يأكل ويشرب وينكح وينام ، ويدع ولده حتى يبلغ وهو لا يدري عن صلاته شيئاً ؟ ودون أن يأمره بما فرض الله عليه !! ولا يدري الرجل عن أهله وأولاده صلوا أم لا ، فتجد شباباً بالغين لا يصلون فرض ربهم وهم تحت كنف أبيهم ، وإذا انكرت عليه هذا أجابك بقوله تعالى : (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها) !!.

٢ – انظر صحيح الجامع ج٢ رقم ٤٠٢٦ . وفي رواية : (مروا أبناءكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين) انظر إرواء الغليل رقم ٢٩٨ .

٣ – طه الآية ١٣٢ .

ويعلمهم المحافظة على أربع ركعات قبل الظهر وأربع بعدها ويرجو الله تعالى أن يحرمه وأهله وأولاده على النار ، فعن أم حبيبة بنت أبي سفيان ﷺ أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من حافظ على أربع ركعات قبل الظهر وأربع بعدها **حرمه الله على النار**)[1]. ويعلم أبناءه المحافظة على إدراك تكبيرة الإحرام في جماعة المسجد أربعين يوماً حتى تصبح ديدنهم ، ويرجو الله الكريم أن يكتب له ولهم براءة من النار وبراءة من النفاق ، فعن أنس بن مالك ﷺ ، قال : قال رسول الله ﷺ : (من صلى لله أربعين يوماً في جماعة ، يدرك التكبيرة الأولى ، كتبت له براءتان براءة من النار وبراءة من النفاق)[2].

---

١ – رواه أحمد ج٦/٣٢٦ رقم ٢٦٨١٥ ، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط : حديث صحيح . والترمذي ج٢/٢٩٢ رقم ٤٢٨ ، وقال : حديث صحيح غريب . والنسائي ج٣/٢٦٥ رقم ١٨١٦، والحاكم في المستدرك ج٣/١٩٥ رقم ١١٢٢، والطبراني في الكبير ج١٧/٧٢ رقم١٨٩٧١.

٢ - الحديث روي عن أنس بن مالك وعمر بن الخطاب وأبي الكاهل قيس بن عائذ الأحمسي رضي الله عنهم بعدة طرق يقوي بعضها بعضاً ، منها : أربعة طرق عن أنس رضي الله عنه لا تنزل عن درجة الحسن ، روي منها مرفوعاً وموقوفاً ، وما جاء منها موقوفاً ، فمثله لا يقال من قبل الرأي ، فهو في حكم المرفوع ، وبقية الطرق عن عمر بن الخطاب وأبو كاهل الأحمسي رضي الله عنهما إن لم تزد الحديث قوة فلن تؤثر فيه ضعفاً ، فالحديث بمجموع طرقه حسن لغيره ، رواه الترمذي ج٢/٧ رقم ٢٤١ ، والبيهقي في شعب الإيمان ج٣/٦١ رقم ٢٨٧٢ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج ١/٢٨٥ رقم ٤٦٦ ، والمنذري في الترغيب والترهيب ج١/١٦٠ رقم ٥٩٣ ، والطبراني في الكبير ج١٣/٣١١ رقم ١٥٣١٦، وانظر التلخيص الحبير لابن حجر العسقلاني ج٢/٢٧ رقم ٥٥٨ ، وصحيح الجامع للألباني م٢ برقم ٦٣٦٥ ، والسلسلة الصحيحة م٦/١٥١ برقم ٢٦٥٢ . قال الألباني رحمه الله : والخلاصة : فالحديث بمجموع طرقه الأربعة عن أنس رضي الله عنه حسن على أقل الأحوال ، وبقية الطرق إن لم تزده قوة . فلن تؤثر فيه ضعفاً .

ويعلمهم أن يستجيروا في يومهم سبع مرات من النار ، ويسألوا الله الجنة في يومهم سبع مرات ، فعن أبي هريرة ﷺ ، قال : قال رسول الله ﷺ : (ما استجار عبد من النار سبع مرات في يوم إلا قالت النار : يا رب إن عبدك فلانا قد استجارك مني فأجره ، ولا يسأل الله عبد الجنة في يوم سبع مرات إلا قالت الجنة : يا رب إن عبدك فلانا سألني فأدخله الجنة)[1].

ويعلمهم فريضة الصيام وسائر العبادات ... ويربيهم على الآداب الشرعية في شأنهم كله في لباسهم وطعامهم وشرابهم وتحيتهم واستئذانهم وغير ذلك ، وأذكار الصباح والمساء ، وقراءة القرآن الكريم وحفظه والعمل به ، ومثله قراءة السيرة والسنة النبوية وحفظها ، والأدعية المأثورة ، ويربي البنت على الستر والعفاف والحشمة من صغرها ، ويربي الصبي على الرجولة والشجاعة والجهاد وحب الشهادة ، وهذا كله من وقاية الرجل نفسه وأهله نار جهنم .

وقد ذكر ابن كثير رحمه الله في تفسيره أن حديث تعليم الأولاد الصلاة يدخل في معنى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾

قال الفقهاء : وهكذا في الصوم ليكون ذلك تمريناً له على العبادة لكي يبلغ وهو مستمر على العبادة والطاعة ومجانبة المعاصي وترك المنكر ، والله الموفق[2] ا.هـ

١ – رواه أبو يعلى في المسند ج٤٥٣/١٢ رقم ٦٠٦٣ ، وانظر السلسلة الصحيحة للألباني ج٥/٦ رقم ٢٥٠٦.

٢– انظر تفسير ابن كثير ج ٣٩٢/٤

وقد أفرد الخطيب البغدادي رحمه الله في كتابه الفقيه والمتفقه فصلاً سماه : (ما جاء في تعليم الرجال أولادهم ونساءهم ، والسادات عبيدهم وإماءهم) وذكر فيه الأحاديث الدالة على ذلك[١].

فالرجل هو المسؤول عن تربية نفسه وأهله وأولاده ومن تحت ولايته ، يعلمهم الآداب الشرعية في شأنهم كله ، في لباسهم وطعامهم وشرابهم وتحيتهم واستئذانهم وغير ذلك ،

******

الوقفة السادسة : الرجل الذي قصر في وقاية أهله نار جهنم مؤاخذ بتصرفاتهم بعد وفاته .

علمنا مما سبق أنه يجب على الرجل أن يقي نفسه وأهله نار جهنم ، وأن يعلمهم ما فرضه الله عليهم ، فإن قصر الرجل في وقاية نفسه وأهله نار جهنم ، ويتق الله في نفسه ولم يأمر أهله بتقوى الله ،فإنه مؤاخذ بفعلهم بعد موته ووزرهم عليه ، قال تعالى:(وليحملنّ أوزارهم وأوزاراً مع أوزارهم وليسألنّ يوم القيامة عما كانوايفترون)[٢] وقال تعالى : (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون)[٣]

١ – انظر الفقيه والمتفقه للبغدادي ج١/٤٦ ، ٤٧ .

٢ – العنكبوت الآية ١٣

٣ – النحل الآية ٢٥

فإذا غش الرجل نفسه ورعيته ، ولم يبين لهم ما فرض الله ، أو كان يمارس أمامهم البدع والضلالات والشركيات ، فآثام رعيته التي اتبعته فوق آثامه ،

يقول عليه الصلاة والسلام : (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه ، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا)[1] وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام : (ألا تسمعون ؟ إن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب و لكن يعذب بهذا . و أشار إلى لسانه . أو يرحم ، وإن الميت يعذب ببكاء أهله عليه) [2]

فإذا مات الرجل ، وصار أهله وبناته يبكونه ويندبونه وينوحون عليه ، أو يلطمون خدودهم ، أو يشقون جيوبهم ، أو يطلقون القول وينادون ميتهم : (يا سندي ، يا معتمدي ...) فهذا الميت يؤاخذ ويعذب بما يقول أهله وبناته ؛ لأنه قصر وفرط ولم يعلمهم ما فرضه الله عليهم ، أما إذا كان الرجل في حياته قد علم وبين ، وأمر ونهى ، ووقى نفسه وأهله نار جهنم ، ثم وقع أهله وبناته في الإثم والمعصية بعد مماته ، فمثل هذا الرجل نرجو الله له ألا يعذبه ولا يتزر بشيء من أوزارهم ، قال ابن المبارك : أرجو إن كان ينهاهم في حياته أن لا يكون عليه من ذلك شيء . [3]

---

١ – السلسلة الصحيحة للألباني م٢ رقم ٨٦٥ ، وصحيح الجامع م١رقم ٢٧١٢ ، ٦٢٣٤

٢ – صحيح الجامع م١رقم ٢٦٤٧.

٣ - سنن الترمذي رقم ١٠٠٢ ، وقال : حديث حسن صحيح .

وقد بوب البخاري في صحيحه باباً سماه : باب قول النبي ﷺ يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه إذا كان النوح من سنته ، لقول الله تعالى : (قوا أنفسكم وأهليكم نارا) ، وقال النبي ﷺ : (كلكم راع ومسؤول عن رعيته) فإذا لم يكن من سنته فهو كما قالت عائشة ﷺ : (لا تزر وازرة وزر أخرى) وهو كقوله تعالى : (وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى) وما يرخص من البكاء نوح ، وقال النبي ﷺ : (لا تقتل نفس ظلما إلا كان على بن آدم الأول كفل من دمها وذلك لأنه أول من سن القتل) .[1]

****

الوقفة الثامنة : من وقاية الرجل المؤمن ولده نار جهنم ألا يدع تربيته لغيره.

من وقاية الرجل المؤمن ولده نار جهنم ألا يدع تربيته لغيره من خادمة أو حضانة أو مدرسة أو وسائل أعلام من تلفاز وقنوات ... أو يبقي له الحبل على الغارب فيترك أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر بحجة أنه صغير غير مكلف .

قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم) أي أن الرجل المؤمن هو المسؤول عن أهله وأولاده ، فهو الذي يتولى تعليمهم وتأديبهم وتربيتهم وأمرهم ونهيهم ، وليس ذلك منوط بوسائل الإعلام من تلفاز وقنوات أو غيرها ، ولا يصح أن يتولى تربية أولادنا أناس لا أمانة ولا خلق لهم في الدنيا ، ولا خلاق لهم في الآخرة ، فقد آلت وسائل الإعلام في واقعنا المعاصر إلى بؤر للفساد والفسق والفجور وتفريغ الجيل من كل

١-انظر صحيح البخاري ج١/٤٣١ .

فضيلة ، فالخطاب في الآية موجه لولي الأمر الرجل ، والذي سيسأل يوم القيامة عن الولد فهو وليه المباشر الذي كان يرعاه ، عن الحسن ﷺ أن نبي الله ﷺ قال : (إن الله سائل كل راع عما استرعاه احفظ أم ضيع ، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته)[1]، وعن ابن عمر ﷺ قوله : (أدب ابنك فإنك مسؤول عن ولدك ما علمته وهو مسؤول عن برك وطاعته لك)[2]

فالبيت الذي ينشأ فيه الأهل والأولاد يجب أن يكون خاليا من المنكرات وأدوات اللهو والفساد ، واختلاط الرجال بالنساء ، واقتناء التماثيل والصور المنهي عنها ، واقتناء الكلاب لغير حاجة شرعية مباحة ، والتلفظ بالألفاظ القبيحة ، أو ممارسة الشركيات وفعل البدع المختلفة وغيرها ... وهذا كله من وقاية الرجل نفسه وأهله نار جهنم .

فأنت أنت أيها الرجل المؤمن لا غيرك المسؤول عن أهلك وعيالك ، فلا تدع تعليمهم وتربيتهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، ولا تبقي لولدك الحبل على الغارب بحجة أنه صغير لا يفهم وغير مكلف ، ولعل بعض الأدلة تبين لنا أهمية هذه المسألة :

١ . حديث أبي هريرة ﷺ أن الحسن بن عليّ أخذ تمرة من تمر الصدقة فجعلها في فيه ، فقال النبي ﷺ بالفارسية : كخ ، كخ ، أما تعرف أنا لا نأكل الصدقة[3] ؟.

---

١ – انظر صحيح ابن حبان ج١٠/٣٤٥ رقم٤٤٩٣ .

٢ – انظر زاد المسير ج٨/٣١٢، والفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي ص١٤٧ ، وتحفة المولود ص١٧٧ .

٣ – رواه البخاري ج٣/١١١٧ برقم ٢٩٠٧

قال ابن حجر : كخ بفتح الكاف وكسرها وسكون المعجمة مثقلاً ومخففاً وبكسر الخاء منونة وغير منونة فيخرج من ذلك ست لغات ، والثانية توكيد للأولى ، وهي كلمة تقال لردع الصبي عند تناوله ما يستقذر [١] .

وقال السيوطي : كخ كخ قال القاضي : يقال بفتح الكاف وكسرها وسكون الخاء ويجوز كسرها مع التنوين ، وهي كلمة يزجر بها الصبيان عن المستقذرات أي اتركه وارم به [٢] .

قلت : لم يدع النبي ﷺ الحسن بن علي ﷺ يأكل تمرة واحدة من تمر الصدقة بحجة أنه صغير وغير مكلف وأن هذه تمرة لا تقدم ولا تؤخر ، وإنما زجره عليه الصلاة والسلام بقوله : كخ ، كخ . وعلمه أن أهل بيت النبوة رضي الله عنهم لا يأكلون من الصدقة ، وليت أن الآباء يستعملون هذه الألفاظ النبوية مع صغارهم بدلاً من الالفاظ التي ما انزل الله بها من سلطان

٢ . حديث عمر بن أبى سلمة قال : كنت غلاما في حجر رسول الله ﷺ وكانت يدي تطيش في الصحفة فقال : (يا غلام سم الله ، وكل بيمينك ، وكل مما يليك) [٣] .

وهنا أيضاً عندما أخل الغلام بآداب الطعام لم يدع رسول الله ﷺ يده تطيش في الصحفة ، ليفعل ما يشاء بدعوى أنه صغير وغير مكلف ولا يفهم !! كما واقع اليوم عند كثير من الآباء مع أولادهم ، وإنما بين نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام للغلام آداب الطعام ، وأمره أن يسم الله ، وأن يأكل بيمينه ، وأن يأكل مما يليه .

١- فتح الباري ج٣/٣٥٥ .

٢- الديباج للسيوطي ج٣/١٧٠ .

٣- رواه البخاري ج٥/٢٠٥٦ رقم٥٠٦١ ، ومسلم ج٣/١٥٩٩ رقم ٢٠٢٢ .

٣ .عن رافع بن عمرو الغفاري قال : كنت أرمي نخلاً للأنصار وأنا غلام ، فرآني النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا غلام لم ترمي النخل ؟ فقلت : آكل ، قال : فلا ترم النخل ، وكل مما يسقط في أسفلها ، ثم مسح رأسي ، وقال : اللهم أشبع بطنه [١] .

٤ .عن ابن عباس ﷺ ثم ان الفضل ردف النبي ﷺ يوم عرفة ، فجعل يلحظ إلى امرأة ، فقال النبي ﷺ : مه يا غلام ، فان هذا يوم من حفظ فيه بصره غفر له [٢].

فالنبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم لم يقر رافع الغفاري ﷺ وهو غلام عندما رآه يرمي نخل الأنصار ، وإنما نهاه وعلمه ومسح رأسه ودعا له ، وكذلك لم يقر النبي ﷺ الفضل ﷺ وهو غلام عندما نظر إلى المرأة يوم عرفة ، وإنما زجره ونهاه وبين له وعلمه .

واليوم يهمل كثير من الآباء أمر الله في أنفسهم وفي أهل بيوتهم ، فيغيبون عن أهلهم وأولادهم وهم يعافسون الدنيا إلى الليل في تجاراتهم أو في سفر طويل بحجة الأخذ بأسباب الرزق والسعي عليهم دون أن يأخذوا بأسباب وقاية أنفسهم وأهليهم وأولادهم نار جهنم ، فيدعون أولادهم من غير تعليم وتأديب وتربية فلا يأمرونهم بالمعروف ولا ينهونهم عن المنكر ، بينما تتولى مؤسسات التعليم وأجهزة الإعلام الفاسدة تنشئة الأجيال ، فتجد الفتاة الصغيرة تمشي بجوار أبيها أو أمها في الطرقات وهي ترتدي أخر الموضات من الثياب الفاضحة مكشوفة السيقان والذراع والصدر والظهر بحجة أنها صغيرة وغير مكلفة ، ولا أدري هل وليها غير مكلف وهو يذبح حياء طفلته ؟! وهل لا يدري أن هذا عار ومنكر ؟! وأن الطفل يشب وينشأ على ما عوده أبواه .

١- رواه الحاكم في المستدرك ج ٥٠٢/٣ رقم ٥٨٧٤ .

٢- انظر مسند الطيالسي ج٣٥٧/١ رقم ٢٧٣٤.

****

الوقفة التاسعة : من وقاية الرجل نفسه وأهله نار جهنم أن يعامل الجميع بشرع الله، وأن يبتعد بهم عن الذنوب وعما نهى الله عنه وهذا يستطيعه كل مكلف.

قوله تعالى : (قوا أنفسكم) أمر من الله تعالى للمؤمنين بوقاية أنفسهم نار جهنم ، وإنما تكون التقوى والوقاية من النار بامتثال ما أمر الله واجتناب ما نهى عنه ، أما الابتعاد عن جميع ما نهى الله عنه من المعاصي والآثام ، فهذا يستطيعه جميع المكلفين ، وفي حديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : (ما نهيتكم عنه فانتهوا ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم)[1]

، وأما امتثال ما أمر الله به من الطاعات والقربات وغيرها ، فيأتي المكلف منها بقدر وسعه واستطاعته ، قال تعالى : (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها)[2]، وليس من معاني التقوى أن يواقع العبد بعض المعاصي والآثام دون بعضها الآخر ، ثم يزعم أنه يتقي الله بقدر استطاعته . بابتعاده عن بعض المعاصي الأخرى . فهو لا يشاهد ما تعرضه الفضائيات من أفلام الفسق والفجور الفاضح والمكشوف ، وإنما يشاهد فقط ما تعرضه بعض القنوات من أفلام بدوية مستورة (!!) وليس المراد بقوله تعالى : (فاتقوا الله ما استطعتم)[3] ، أي ما نهى الله عنه ، وإنما التقوى هي امتثال أوامر واجتناب نواهي ، والمراد بالاستطاعة في الآية هو ما أمر الله به من طاعات وقربات وغيرها ، أما ما نهى الله عنه من جميع المعاصي والآثام فجميع المكلفين يستطيعون الابتعاد عنها .

١- رواه الإمام أحمد في المسند ج٢/٢٤٧ رقم ٧٣٦١ ، والبيهقي في السنن ج٧/٣٠١ رقم ١٣٣٦٨ .

٢- البقرة الآية ٢٨٦ .

٣- التغابن الآية ١٦

****

الوقفة العاشرة : من وقاية الرجل الطيب نفسه وأولاده نار جهنم أنه لا ينكح إلا امرأة طيبة مثله .

الرجل المؤمن التقي هو الذي يسارع في وقاية نفسه وأهله وأولاده نار جهنم ، وإذا أراد أن ينكح امرأة فإنه لا يقدم على نكاحها والاقتران بها مالم تكن مؤمنة مثله . فيما يحسب . تحافظ على فروض ربها على أقل تقدير ، فالمؤمن لا يرضى أن ينكح من لا تصلي فرضها ، وإن تكاسلت زوجته عن الصلاة حتى تركتها وأصرت على تركها لا يبقيها على ذمته ، فهو يأبى أن تكون زوجته خبيثة ولا يرضى أن تكون زوجته إلا مؤمنة مثله ، وإذا ما ابتلي بزوجة سيئة الخلق فنهاها فلم تستجب سرعان ما يطلقها ، وفي الحديث : (ثلاثة يدعون الله عز وجل فلا يستجاب لهم : رجل كانت تحته امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها)[1]، فالمؤمن الطيب لا يرضى أن تكون زوجته إلا طيبة مثله ، ومثل ذلك المؤمنة الطيبة تأبى أن يكون زوجها إلا طيباً مثلها ، وإذا كانت تحت زوج خبيث لا يقوم بما فرضه الله عليه ولا يقيها نار جهنم سرعان ما تطلب الطلاق منه أو تخلع نفسها منه وتجأر الى الله بالدعاء أن ينجيها من هذا الزوج وعمله ، وتأبى أن يكون ولي أمرها زوج خبيث ،

١- رواه الحاكم في المستدرك ج٣٣١/٢ رقم ٣١٨١ وقال : صحيح على شرط الشيخيين ولم يخرجاه . والبيهقي في السنن ج١٤٦/١٠ رقم ٢٠٣٠٤ ، وفي شعب الإيمان ج٢٤٩/٦ رقم ٨٠٤١ ، والديلمي في الفردوس ج٩٣/٢ رقم ٢٤٩٦ . وانظر صحيح الجامع للألباني م١ رقم ٣٠٧٥ ، والسلسلة الصحيحة م٤ رقم ١٨٠٥ .

قال تعالى : (الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرؤن مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم)[١] ، والمؤمن الطيب يحرص بالدعاء لنفسه ولأهله ولأولاده بقوله : (ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً)[٢].

فمن أراد ذرية طيبة فليطيب نفسه أولاً ، والبذار الطيب ينبت نباتاً طيباً ، والخبيث لا يخرج إلا خبيثاً ، ثم ليختار لنفسه الزوجة الطيبة ، قال تعالى : (الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات) فذلك من الإحسان إلى الأولاد وهم في عالم الغيب ، فالأرض الطيبة إذا وضعت فيها البذار الطيب أخرجت نباتاً طيباً ، والأرض الخبيثة يضيع فيها البذار الطيب ، ولا تخرج إلا نباتاً خبيثاً .

ومن وقاية الرجل المؤمن لأهله نار جهنم أن يأمرهم بصلاة الليل ويصطبر عليهم ، قال تعالى : (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها)[٣].

يقول ابن كثير يرحمه الله في تفسير هذه الآية : أي استنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة ، واصبر أنت على فعلها ، كما قال تعالى : (يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً)[٤].

ويقول السيوطي يرحمه الله : فيه أنه يجب على الإنسان أمر أهله من زوجة وولد وعبد وأمه وسائر عياله بالتقوى والطاعة وخصوصاً الصلاة .ا.هـ[٥]

١- النور الآية ٢٦ .

٢- الفرقان الآية ٧٤ .

٣- طه الآية ١٣٢ .

٤- انظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص١٧١

٥- انظر الإكليل في استنباط التنزيل للسيوطي ج٣/٩٥٧ .

إن الرجل هو المسؤول عن أمر أهله بالصلاة ، وهذا من وقايته لنفسه وأهله نار جهنم ، وليس المراد بالصلاة في هذه الآية صلاة الفرض ، فإذا كانت زوجته لا تصلي الفرض ، فلماذا تزوجها ؟ وإذا كانت زوجته لا تصلي صلاة الفرض وأصرت على تركها لماذا يبقيها على ذمته ؟ وهذه الآية إنما نزلت في مخمصة النبي ﷺ في صلاة النافلة ، وأن ذلك سبب من أسباب الرزق . وقد ثبت عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه كان يصلي من الليل ما شاء الله ، حتى إذا كان من أخر الليل ، أيقظ أهله للصلاة يقول لهم : الصلاة ، الصلاة ، ثم يتلو هذه الآية : (وأمر أهلك بالصلاة)[1] .

وعن هشام بن عروة عن أبيه أنه كان إذا رأى شيئاً من الدنيا جاء إلى أهله فقال : الصلاة ، وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً[2].

فالرجل المؤمن إذا قام من الليل ليصلي أيقظ أهله فإن أبت نضح في وجهها الماء واصطبر عليها ، ومثل ذلك الزوجة الطيبة إذا قامت من الليل لتصلي أيقظت زوجها فإن أبى نضحت في وجهه الماء [3] .

---

١ _ رواه مالك في الموطأ ١١٩/١ رقم ٢٥٩ ، والبيهقي في السنن الصغرى ج٤٧٣/١ رقم٨٣١ .

٢ـ تفسير الطبري ج٢٣٧/١٦ .

٣ـ اشارة إلى حديث : (رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ إمرأته فإن أبت نضح في وجهها الماء ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فإن أبى نضحت في وجهه الماء) رواه أبو داود ج٣٣/٢ برقم ١٣٠٨ وابن ماجة ج٤٢٤/١ برقم ١٣٣٦ وصحيح ابن خزيمة ج١٨٣/٢ وابن حبان ج٣٠٦/٦ والسنن للبيهقي ج٥٠١/٢ برقم ٤٤١٧ والمستدرك للحاكم ج٤٥٣/١ برقم ١١٦٤ وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

ويخبر الله تعالى عن نبيه إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، بأنه كان يقوم بهذا العمل العظيم الجدير بالذكر ، فقد كان مقيماً لأمر الله يأمر أهله بالصلاة والزكاة مما جعله عند ربه مرضياً ، قال تعالى : (واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً . وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً)[١] .

****

الوقفة الحادية عشرة : من وقاية الرجل المؤمن لموليته أن يرضى لها الزوج الكفء صاحب الخلق والدين .

إن الرجل المؤمن الذي يقي نفسه وأهله نار جهنم إذا بلغت موليته من ابنة أو أخت أو ... سن الزواج رضي لها الزوج الكفء صاحب الخلق والدين الذي يستطيع وقايتها نار جهنم ، فلا يزوجها لرجل مهلك لنفسه ، لأن الهالك لا يستطيع أن ينجو بأحد ، وفي حديث أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض)[٢] ، وقوله صلى الله عليه وسلم : (ممن ترضون) أي ترضونه أنتم يا أولياء الأمور ، فإذا زوج الرجل موليته لغير ذي الخلق والدين ، فهو مسؤول عنها في الدنيا والآخرة ولا يلومنّ إلا نفسه وليتحمل تبعات هذا الزواج ... .

١ـ مريم الآية ٥٤ ، ٥٥ .

٢ـ رواه الحاكم ج١٧٩/٢ برقم٢٦٩٥ وقال : هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه ، والبيهقي في سننه ج٨٢/٧ رقم ١٣٢٥٩

والفتاة ذات الخلق والدين لا توافق إلا على رجل ذا خلق ودين ، وإذا وافقت على غيره فلا تلومنّ إلا نفسها ، ولا تقولن فتاة إن كانت ذات خلق ودين : أوافق عليه الآن ، ثم إذا تزوجنا أثرت فيه ودعوته إلى الهدى والتقى والدين كما تفعله بعضهن اليوم !! فالآية : (قوا أنفسكم وأهليكم ناراً) واضحة بينة على أن الزوج هو الذي يقي نفسه وأهله ، وليست الزوجة هي التي تقي نفسها وزوجها نار جهنم ، ولا تبديل لكلمات الله تعالى ، فالمرأة أضعف من أن تقي نفسها نار جهنم/ إلا أن يشاء الله / كما سبق بيانه . فكيف تقي غيرها ؟!.

وما أكثر الأمثلة التي تشهد على ذلك في واقعنا المعاصر ، فكم من فتاة كنا نحسبها على خلق ودين تزوجت من رجل مفرط مضيع مهلك لنفسه ، وما إن لبثت عنده إلا قليلاً حتى صارت مثله في التفريط والضياع ... والحالات الفردية التي تؤثر فيها المرأة على زوجها ليست قاعدة ولا أصلا ولا يقاس عليها.

****

الوقفة الثانية عشرة : الرابح من ربح نفسه وأهله بوقايتهم نار جهنم ، والخاسر من خسر نفسه وأهله يوم القيامة .

إن الله تعالى كلف الرجل وقاية نفسه وأهله نار جهنم ، لأنهم تحت ولايته وإدارته فهو المسؤول عنهم يأطرهم على الحق أطراً ، ولم يكلفه ماعداهم من الناس ، لأنهم خارجون عن ولايته ومسؤوليته فلا سبيل له عليهم سوى النصح أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... فلا ينبغي للرجل المؤمن إذا طلب العلم ووقى نفسه النار أن يقبل على الناس وينفق كل وقته معهم ليعلمهم ويسافر السفر الطويل لأجل ذلك ، ويدع وقاية أهله فلا يعلمهم ما تعلم ولا يجلس معهم كما يفعله كثير من طلبة العلم اليوم ، فأولى الناس بالعلم هم أهلك وأولادك وفلذات كبدك ، والرجل المؤمن يربح نفسه وأهله بوقايتهم نار جهنم قبل أن يخسرهم يوم القيامة ، قال تعالى : (قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين) [1] ، فلا يليق بطالب العلم أن يبني بيتاً لا يسكنه وبيته خرب ، وفي الحديث : (خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي) [2] ، فالأهل والأولاد هم أول من يقطف ثمار هذه الخيرية ، ومن غاب خيره عن أهله وأولاده ، فمن الأولى أن يغيب خيره عن أمته ، والذي لا يسعى ولا يعمل على إقامة دولة الإسلام في أهل بيته ، لم يصدق في مسعاه لإقامة دولة الإسلام في مجتمعه وأمته ، ومن حماقة الرجل أن ينشغل في إعمار بيوت الناس وبيته خراب .

* * * * * * * * * *

١ـ الزمر الآية ١٥ .

٢ – رواه الترمذي ج٥/٧٠٩ رقم ٣٨٩٥ وقال : حديث حسن غريب صحيح . وابن ماجة ج١/٦٣٦ رقم ١٩٧٧ ، وابن حبان ج٩/٤٨٤ رقم ٤١٧٧ ، وانظر صحيح الجامع برقم ٣٣١٤ .

* * * * * * * *

الوقفة الثالثة عشرة : فاقد الشيء لا يعطيه

المرأة عاجزة عن وقاية وحماية نفسها وهي عن وقاية وحماية غيرها أعجز .

إذا كانت المرأة عاجزة عن وقاية وحماية نفسها نار جهنم . كما سبق بيانه . فإنها عن وقاية وحماية غيرها أعجز وأضعف ، وإذا علمت أن المرأة مخلوق ضعيف ، يقول نبينا الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم : (إني أحرج عليكم حق الضعيفين : اليتيم والمرأة) [1]، والمخلوق الضعيف يجب أن يحاط بالرعاية والعناية والرحمة والبر أكثر من غيره ، لا أن يتم تكليفه مالا يطيق أكثر من غيره !! فلماذا يتم تكليف المرأة فوق طاقتها وهي ضعيفة ؟! ولماذا يتم تكليفها بأعمال ليست من اختصاصها وخارج بيتها كالمحاماة وغيرها ؟! وكيف تقوم المرأة بوقاية وحماية غيرها وهي لا تستطيع وقاية وحماية نفسها ؟! وفاقد الشيء لا يعطيه ، والمرأة في الخصام غير مبين ، قال تعالى : (أومن ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين)[2] .

قال قتادة : ما تكلمت امرأة ولها حجة إلا جعلتها على نفسها [3].

---

١ – رواه أحمد في المسند ج٢/٤٣٩ رقم ٩٦٦٤ والحاكم في المستدرك ج١/١٣١ رقم ٢١١ وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه ، وابن ماجة ج٢/١٢١٣ رقم ٣٦٧٨ والبيهقي ج١٠/١٣٤ رقم ٢٠٢٣٩ وانظر صحيح الجامع للألباني م١ رقم ٢٤٤٧ والسلسلة الصحيحة م٣ رقم ١٠١٥ .

٢ – الزخرف الآية ١٨ .

٣ – انظر تفسير القرطبي ج٨ص٥٨٩٣ .

وقال ابن كثير في تفسيره : إن المرأة ناقصة يكمل نقصها بلبس الحلي منذ تكون طفلة ، وإذا خاصمت فلا عبارة لها بل هي عاجزة عيية ، فالأنثى ناقصة الظاهر والباطن في الصورة والمعنى، فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحلي وما في معناه ليجبر ما فيها من نقص ، وأما نقص معناها فإنها ضعيفة عاجزة عن الانتصار ، وعند الانتصار لا عبارة لها ولا همة[1].

وإذا كانت المرأة لا تستطيع وقاية وحماية نفسها ، فهل ستقي وتحمي المرأة موكلها وتدافع وتنافح عنه ؟!.

وما هو حال الموكلين من الرجال إذا وكلوا من كانت لها الحجة ثم جعلتها على نفسها ؟!.

وهل هذا رحمة بالمرأة أم قسوة ؟ وهل هذا إكرام للمرأة أو امتهان لها ؟!.

****

١- انظر تفسير ابن كثير ج٤ ص١٢٥ . قلت : هذه الآية تبين صفتان متلازمتان للمرأة ، الأولى منهما : أن المرأة تنشأ في الحلية والزينة من نعومة أظفارها ، فحبها للحلي والزينة فطرة جبلت عليها ، والثانية : الضعف في الخصومة ، فالمرأة يغلب عليها عاطفتها ورقتها وسرعة انفعالها حيث تضطرب أعصابها ويزداد خلجان قلبها مما يجعلها تفقد الحجة وتضعف عند الخصومة ، وهذا المعنى مشاهد في كل بيت ، فما إن يظلم الصبي أخته حتى تسرع الفتاة لتشتكي من ظلمها إلى والدها ، وما إن تقف أمام والدها ، حتى تنفجر بالبكاء وتضيع كلماتها ولا تبين حجتها . انظر كتابي المحاماة في ميزان الشريعة ، فصل حكم تولي المرأة مهنة المحاماة

الوقفة الرابعة عشرة : الرجل المؤمن وحده هو الذي ينتفع بالموعظة والذكرى.

قوله تعالى : (ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) لمّا كان الخطاب موجه للمؤمنين وحدهم دون غيرهم ، فقد وعظهم الله سبحانه وخوفهم بأن وصف لهم النار بأن وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فالموعظة والذكرى لا تنفع إلا الرجل المؤمن المتقي والمنيب إلى الله فحسب ،.

قال تعالى : (هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين)[1]، وقال تعالى : (وذكر إن الذكرى تنفع المؤمنين)[2] ، وقال تعالى: (وما يتذكر إلا من ينيب)[3] ، فالمؤمن إذا غفل أو أخطأ وأذنب ومسه طائف من الشيطان سرعان ما يتذكر ويستيقظ كأن ثعبان لدغه فيقيمه الألم ولا يقعده ، قال تعالى : (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون)[4] ، والمؤمن وحده دون غيره إذا وعظ وذكر يتوب ويؤوب إلى الله من غفلته ، ويرجع إلى رشده وصوابه ويتعظ بما يسمع فالذكرى تنفع المؤمنين ، والمؤمن وحده هو الذي يعي خطاب ربه ويتذكر وينتفع بالموعظة والذكرى ،

---

١ – آل عمران الآية ١٣٩.

٢ – الذاريات الآية ٥٥ .

٣ – غافر الآية ١٣ .

٤ – الأعراف الآية ٢٠١ .

أما ما عداه فمهما تذكره بتقصيره وتفريطه وتخوفه بالله وتذكره بالنار وعذابها ... لا يتذكر ولا ينتفع بالموعظة والذكرى ، كأن في أذنيه وقراً .

والرجل المؤمن يربي أهله وأولاده على الإيمان بالله تعالى والخوف منه ومراقبته في السر والعلن ، وأنه سبحانه وتعالى فوق السماوات العلا يسمعنا ويرانا ، يثيب مَن أطاعه بالجنة ويعاقب من عصاه بالنار ، فيصف لهم الجنة ونعيمها وما أعده لمن أمن به وأطاعه ، ويصف لهم النار وملائكتها وعذابها وزقومها وما أعده لمن كفر به وعصاه ، وبذلك ينمي الرجل المؤمن في أهله وأولاده الوازع الديني ، تارة بالخوف والترهيب من غضب الله وعذابه ، وتارة بالرجاء والترغيب بما عند الله من أجر وثواب ، وتارة بالمحبة لله ولرسوله ﷺ ، وأن علامة المحبة تقديم ما أمر الله ورسوله ﷺ على كل أمر ، واجتناب ما نهى الله ورسوله ﷺ ، وأن المحب لمن يحب مطيع ، وأن رسول الله ﷺ هو القدوة الحسنة في كل أمر .

****

الوقفة الخامسة عشرة : الخوف سبب في تغيير الأنفس .

قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) خطاب للرجل المؤمن لتغيير نفسه وأهله وأولاده في بيته ، والانتقال بنفسه وبالأنفس التي معه . أهله وأولاده . من حال لا ترضي الله إلى حال أخرى ترضيه حتى يقي بذلك نفسه وأهله نار جهنم .

لقد وصفت النار بهذه الصورة التي تقرع القلوب المؤمنة (ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) زيادة في التخويف والترهيب الذي هو سبب في تغيير الأنفس ، والانتقال بها من حال لا ترضي الله إلى حال أخرى ترضيه ، حتى يصير أصحابها من الصالحين المتقين .

والتغيير هو انتقال أو تحول من حالة إلى أخرى سلباً أو إيجاباً ، فنقول عن المرء أنه تغير إذا انتقل من حالة سيئة إلى حالة حسنة ، ومن حالة حسنة إلى حالة أحسن ، إن كان تغيره ايجابياً وبالعكس إن كان تغيره سلبياً.

فالتغيير المطلوب باختصار هو : انتقال من حالة سلبية واقعية إلى حالة إيجابية منشودة .

وكأن سائلاً يسأل : ما السبيل لتغيير النفس البشرية والانتقال بها من حال إلى حال ، فقد غزت كثير من البيوت أجهزة الفساد حتى غدا أصحابها كالدمى يتحركون

عن بعد ، من خلال ما تبثه هذه الأجهزة من أفكار منحرفة ، أو عقائد فاسدة ، أو سلوك وأخلاق سيئة ، فتراهم ألفوا نمطاً من الحياة الرتيبة لا يحيدون عنها قيد أنملة ، وصاروا يقضون ليلهم في طاعة الشيطان ، أمام أجهزة الإعلام على المنكرات والمعاصي والأثام ، ما السبيل لتغيير الأنفس .الأهل والأولاد .الذين اعتادوا نمطاً من الحياة وهم في غفلة لا يذكرون الله إلا قليلاً ؟ ما السبيل لتغيير بيوت وأسر المسلمين ؟.

ويأتي الجواب : إن السبيل لتغيير النفس البشرية عموما إنما يكون تارة بالخوف والترهيب سواء كان من غضب الله وعذابه ، وتارة يكون بالرجاء والترغيب سواء كان بما عند الله من أجر وثواب وخير ، وتارة يكون بالمحبة سواء كان هذا الحب لله تعالى أو لغيره ، والمحب لمن يحب مطيع .

والله سبحانه وصف لعباده المؤمنين في هذه الآية الكريمة نار جهنم ، نار وقودها الناس الذين كفروا وتكبروا وتثاقلوا عن طاعة الله ، ونار تشتعل بالحجارة التي تذوب فيها ، ونار عليها ملائكة غلاظ في الطبع ، شداد في الأجسام لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، هذا الوصف المرعب وغيره في آيات أخرى كأخذهم للمجرمين بالنواصي والأقدام ، فيقول له المجرم : ارحمني ، فيقول له : كيف أرحمك ولم يرحمك أرحم الراحمين ؟ ... كل ذلك حتى إذا غفلت النفس المؤمنة فزلت أو ظلمت ، ثم قرأت أو قرأ عليها هذا التهديد والوعيد الشديد تتذكر وتفزع وكأن ثعبان لدغها يقيمها الألم ولا يقعدها حتى تتوب وترجع عن ظلمها وغيها .

فيكون هذا التخويف والترهيب حادياً وحافزاً للمؤمنين حتى يغيروا ما بأنفسهم وأهليهم الذين قاموا عليهم ، ليفروا بأنفسهم وبأهليهم من حال لا ترضي ربهم إلى حال ترضيه ، من حال المعصية إلى الطاعة ، ومن حال الغفلة إلى الذكر .

ولعل من أوضح الأمثلة على ذلك في واقعنا المعاصر حال رب العمل المؤمن عندما يزل ويظلم أخاً يعمل عنده ، انظر إليه كيف يتهدد ويتوعد عامله ويصدر في حقه قرارات ظالمة ويصر على تنفيذها ؟ ثم انظر إليه كيف إذا جاء من يذكره بالله ويخوفه من الظلم وعاقبته الوخيمة ؟ تجده يتراجع بين عشية وضحاها عن جميع قراراته ويتوب إلى الله الذي حرم الظلم على نفسه وعلى عباده ، ويقبل إلى أخيه معتذراً مما صدر منه محسناً إليه ، ما الذي غير صاحب العمل ؟ من رجل ظالم يتهدد ويتوعد إلى رجل يعتذر ويحسن إلى أخيه ؟. إنه الإيمان والخوف من الله ومن سخطه وعذابه .

فيا أيها المؤمنون

قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وغيروا أنفسكم وأهليكم وانتقلوا بهم إلى حال ترضي مولاكم ، وابتعدوا عما نهاكم عنه ، وأخرجوا أجهزة الفساد من بيوتكم ، ولا تظلموا أنفسكم وأهليكم وتسخطوا ربكم ، وخافوا ناره التي وقودها الناس والحجارة ، وتذكروا أن عليها ملائكة يأتمرون بأمر الله ، غلاظ شداد ، لا يعصون الله ما أمرهم كما عصيتموه أنتم ، جعلني الله وإياكم من المؤمنين حقاً وصدقاً ، وممن يعي خطاب ربه ويقي نفسه وأهله نار جهنم ، وينتفع بالموعظة والذكرى ، اللهم اغفر لنا وتب علينا

إنك أنت التواب الرحيم ، واجعلنا ممن يقي نفسه وأهله نار جهنم ، اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، وقنا شر الشبهات والشهوات ، واهدنا صراطك المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . اللهم أصلح أحوالنا وأحوال أهلينا وأحوال من نعول وأحوال عشيرتنا الأقربين وأحوال المسلمين ، اللهم ردنا إلى دينك رداً حميداً واجعلنا ممن يقيم الإسلام في نفسه وأهله ورعيته وخاصته ، واجعلنا لإخواننا ناصحين أمرين بالمعروف ناهين عن المنكر ، اللهم واجعلنا من الطيبين واجعل زوجاتنا من الطيبات ، اللهم طيب أعمالنا في طيبة الطيبة ، واجعل محيانا ومماتنا لك فيها ، وأحسن ختامنا برحمتك يا أرحم الراحمين ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد .

كتبه لنفسه ولأهله ولمن شاء الله من بعده

أبو مالك مُحَمَّد بن قاسم بن مُحَمَّد غزال المديني الضُّميري

طيبة الطيبة في ٣/١٢/١٤٢٦هـ